المنهج اللغوي في تفسير القرآن الكريم
تفسير الشعراوي نموذجا

أ/ محمد مقدم
المركز الجامعي غليزان

إن الإقبال على تفسير النص القرآني ودراسته، فتح الشهية أمام المفسرين فأسال لعاب أقلامهم، وفتق قرائحهم حتى جادت بكنوز ودرر تمثلت في ذلك الموروث التفسيري الضخم، الذي تزخر به المكتبة القرآنية. غير أن هذا الموروث تعددت مناهجه، وتباينت اتجاهاته بحسب ثقافة المفسرين أنفسهم. وإن من أبرز تلك المناهج المشهورة لدى علماء التفسير المنهج اللغوي. هذا المنهج الذي سأحاول التطرق إليه وبيان أبرز خصائصه من خلال الإجابة على جملة من التساؤلات الآتية: ما المقصود بالمنهج اللغوي؟ وأين تكمن أهمية هذا الاتجاه التفسيري؟ وما هي أبرز خصائصه؟ وما هي أبرز ملامح هذا التفسير عند الشعراوي؟. تلك أهم التساؤلات التي سأحاول الإجابة عنها من خلال عناصر هذا البحث وفق المنهجية التالية: مقدمة، مكانة التفسير اللغوي و خصائصه، ملامح التفسير اللغوي عند الشعراوي.

مقدمة:

يعد الاتجاه اللغوي في التفسير من أقدم الاتجاهات التي وجدت في التفسير، كما تعتبر اللغة و الآداب العربية أحد المصادر المهمة في تفسير القرآن، والتي لا يمكن أن يستغني عنها أي مفسر، وكانت مسألة استخدام اللغة العربية في فهم القرآن مورد اهتمام الأدباء والمفسرين منذ القدم.

وقد نبه العلماء إلى ذلك كثيرا فقد روي عن الإمام مالك بن أنس ﷺ قوله:" لا أوتى برجل يفسر كتاب الله غير عالم بالعربية إلا جعلته نكالا"[1].

وروى عكرمة عن ابن عباس قال: "إذا سألتموني عن غريب اللغة فالتمسوه في الشعر، فإن الشعر ديوان العرب، فإذا خفي علينا الحرف من القرآن الذي أنزله الله بلغة العرب، رجعنا إلى ديوانها فالتمسنا ذلك منه"[2].

وقال السيوطي:" قال العلماء : يجب على المفسر أن يتحرى في التفسير مطابقة المفسر، وأن يتحرز في ذلك من نقص لما يحتاج إليه في إيضاح المعنى أو زيادة لا تليق بالغرض، ومن كون المفسر فيه زيغ عن المعنى وعدول عن طريقه، وعليه بمراعاة المعنى الحقيقي والمجازي، ومراعاة التأليف والغرض الذي سبق الكلام، وأن يؤاخي بين المفردات، ويجب عليه البداءة بالعلوم اللفظية، وأول

ما يجب البداءة به منها تحقيق الألفاظ المفردة فيتكلم عليها من جهة اللغة. ثم التصريف، ثم الاشتقاق، ثم يتكلم عليها بحسب التركيب، فيبدأ بالإعراب ثم بما يتعلق بالمعاني، ثم البيان، ثم البديع، ثم يبين المعنى المراد، ثم الاستنباط، ثم الإشارات"[3].

كما أكد الراغب الأصفهاني على أهمية هذا الاتجاه ودوره في صياغة المعاني القرآنية بقوله: " إن أول ما يحتاج أن يشتغل به من علوم القرآن، العلوم اللفظية ومن العلوم اللفظية تحقيق الألفاظ المفردة، فتحصيل معاني مفردات ألفاظ القرآن في كونه من أوائل المعاون لمن يريد أن يدرك معانيه، كتحصيل اللبن في كونه من أول المعاون في بناء ما يريد أن يبينه، وليس نافعا في علم القرآن فقط بل هو نافع في كل علم من علوم الشرع، فألفاظ القرآن هي لب كلام العرب وزبدته، وواسطته وكرائمه، وعليها اعتماد الفقهاء والحكماء في أحكام وحكمهم، وإليها مفزع حذاق الشعراء والبلغاء في نظمهم ونثرهم، وما عداها وعدا الألفاظ المتفرعات عنها والمشتقات منها هو بالإضافة إليها كالقشور والنوى بالإضافة إلى أطايب الثمرة، وكالحثالة والتبن بالإضافة إلى لبوب الحنطة "[4].

ويقول الشيخ الطاهر بن عاشور:" أما العربية فالمراد منها معرفة مقاصد العرب من كلامهم وأدب لغتهم سواء حصلت تلك المعرفة بالسجية والسليقة، كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين نزل القرآن بين ظهرانيهم، أم حصلت بالتلقي والتعلم كالمعرفة الحاصلة للعرب الذين شافهوا بقية العرب ومارسوهم، والمولدين الذين درسوا علوم اللسان ودونوها.

إن القرآن كلام عربي فكانت قواعد العربية طريقا لفهم معانيه، وبدون ذلك يقع الغلط وسوء الفهم، لمن ليس بعربي بالسليقة، ونعني بقواعد العربية مجموع علوم اللسان العربي، وهي: متن اللغة، والتصريف، والنحو، والمعاني، والبيان، ومن وراء ذلك استعمال العرب المتبع من أساليبهم في خطبهم وأشعارهم وتراكيب بلغائهم"[5].

مكانة التفسير اللغوي

إن من البديهي والمتعارف عليه "في تاريخ الدراسات القرآنية أن من القضايا المنهجية المسلم بها في علم التفسير– التي اعتمدها جميع المفسرين بكل اتجاهاتهم تقريبا وإن بدرجات متفاوتة– هو أن الدليل اللغوي يعتبر الطريق الأول إلى فهم آي القرآن الكريم، وبتعبير آخر فإنه لا يمكن أن يقوم أي تفسير–أيا كان نوعه وطبيعته–إلا باعتماد اللغة أولا"[6].

فمكانة اللغة من التفسير مكانة عظيمة منذ نشأة هذا العلم واهتمام السلف به، وقد ظل الناس يعلمون للغة قدرها في علم التفسير بين العلوم الشرعية كلها " وذلك أنهم لا يجدون علما من العلوم الإسلامية فقهها وكلامها، وعلمي تفسيرها وأخبارها، إلا وافتقاره إلى العربية بين لا يدفع ومكشوف لا يتقنع"[7].

من هنا كانت الحاجة ماسة إلى تعلم اللغة العربية بغية فهم القرآن وتدبر معانيه، ومعرفة أحكامه وتشريعاته، إذ هي وسيلة فهم المراد من خطاب الله تعالى لعباده. وليس لأحد أن يدخل هذا الباب من غير مؤهل، لأن الانحراف عن الحق والصواب في مثل هذه المسائل يكون تقولا على الله بغير علم ولا هدى. ومن هنا كان لابد من تعلم اللغة العربية، كشرط يجب توفره في

المفسر بجانب الشروط الأخرى المعروفة مثل معرفة علوم القرآن، الناسخ والمنسوخ، والقراءات وعلوم الحديث والأصول والعقيدة وغيرها، يقول مجاهد: " لا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يتكلم في كتاب الله إذا لم يكن عالما بلغات العرب"[8].

وبالرغم من أهمية اللغة العربية في التفسير، إلا أن التفسير اللغوي له ضوابط على المفسر التقيد بها "إذ لا يجوز أن يحمل كلام الله عز وجل، ويفسر بمجرد الاحتمال النحوي الإعرابي الذي يحتمله تركيب الكلام، ويكون الكلام به له معنى ما، فإن هذا مقام غلط فيه أكثر المعربين للقرآن"[9].

وعلى المفسر أن يحذر" أن يتسارع إلى تفسير القرآن بظاهر العربية، من غير استظهار بالسماع والنقل فيما يتعلق بغرائب القرآن، وما فيه من الألفاظ المبهمة والمبدلة، وما فيه من الاختصار والحذف والإضمار والتقديم والتأخير، فمن لم يحكم ظاهر التفسير وبادر إلى استنباط المعاني بمجرد فهم العربية، كثر غلطه، ودخل في زمرة من فسر القرآن بالرأي"[10].

إن هذا المنهج التفسيري الذي يدير عملية التفسير يعتني بالجانب اللغوي لفظا، واشتقاقا، وشكلا وتركيبا وبناء وعمارة، وبحثا في أصول الألفاظ وجوانبها الصورية والمعنائية. وينقسم بدوره إلى اتجاهات عدة منها الاتجاه اللغوي البحت، والاتجاه البياني الذي يركز على بلاغة القرآن في جانبه البياني من الاستعارة والتشبيه والكناية والمجاز وغيرها، والاتجاه التعبيري الذي يولي عناية أساسية بأساليب التعبير ولبيان في القرآن الكريم، والاتجاه البنائي الفني الذي يعتني بعمارة السورة القرآنية وبيان صور الاتصال فيها"[11].

خصائص هذا المنهج :

إن أكثر ما يهتم به أصحاب هذا المنهج، هو المسائل التالية[12] :

1- الاهتمام بالمسائل النحوية والصرفية للألفاظ وعبارات القرآن، وفي بعض الأحيان، يقوم المفسر بإعراب الآيات ودراسة النواحي الصرفية فيها.
2- الاهتمام ببيان المسائل واللطائف البلاغية وفصاحة القرآن.
3- الاهتمام بالإعجاز الأدبي والبلاغي، أو إثبات ذلك.
4- توضيح اللغات الغريبة والمشكلة في القرآن.
5- الاهتمام بجذور الكلمات في اللغة العربية والثقافات غير العربية
6- الاهتمام باختلاف القراءات، وتأثير ذلك في معاني الآيات.
7- الاستفادة من أشعار العرب، وخصوصا الجاهلي منها كمصدر للتعرف على معاني القرآن.
8- الاهتمام بمباحث الوجوه والنظائر والحقيقة والمجاز.

ملامح التفسير اللغوي عند الشعراوي[13]

تعتبر اللغة بشتى فروعها من أهم الأسس التي اعتمدها الشعراوي في تفسيره، فالشيخ من الذين أوتوا ملكة قوية في اللغة ويكاد هذا الجانب يطغى على تفسيره، فلا يكاد يفسر آية قرآنية حتى يشرح ألفاظها و يذلل معانيها. خاصة وأن تفسيره كان تفسيرا شفهيا موجها لعامة الناس، مما جعله في كثير من الأحيان يحرص على تبسيط الأفكار وتذليل المعاني فمنهجه في التفسير" أول ما يقوم على التحليل اللغوي للكلمة وتأصيلها وبيان مشتقاتها ومعانيها، وبيان المعنى المراد منها في سياق الآيات القرآنية الكريمة"[14].

وتظهر أهمية هذا الجانب في تفسير الشعراوي من حيث اشتراط العلماء معرفة العربية، والإحاطة بعلوم اللغة أساسا للخائض غمار تفسير كتاب الله ﷻ، وليس ذلك ببعيد عن شخصية الشيخ الشعراوي الذي طاوعته اللغة العربية ودانت له، وكان وسيلته الأنجع في تبسيط معاني القرآن وتقديمها بشكل سلس يفهمه العامة والخاصة.

إن من أبرز ما يتميز به الشعراوي في هذا المجال بيان معاني المفردات القرآنية وأساليب استعمالها ، وهو يتفنن في ذلك ويتوسع فيه توسعا يدل على مدى تمكنه من اللغة العربية وتبحره في علومها، ودقته في الاستدلال على المعنى المراد، وصحة حمل الألفاظ على الاستعمال.

نماذج تطبيقية من خلال تفسير الشعراوي

1- عناية الشعراوي بالمفردة القرآنية

لم يجد المفسرون قديما ولا حديثا بدا من التعامل مع النص القرآني انطلاقا من وحداته المفردة، وأعني بذلك شرح المفردات لأنها مفتاح فهم النص" فإن النظر في مفردات النص القرآني من أوجب ما يجب على مفسره ودارسه، لأنها مفتاح النص، وزمام ما فيه من دقيق المعاني وخفي الإشارات، وكلما أحس الدارس هذه الوقفات واستشف من المفردات كلما تعطيه وتلوح به من معنى روحي ورمزي،كان أقدر على الاندماج والمشاركة، وبهذا يصل نفسه بنفس منشئه، ويحلق في آفاقه وخطراته، ويملك تجربته كاملة، وحينما يصل المفسر إلى هذه الدرجة فقد وصل إلى ما ينبغي أن يصل إليه"[15].

فلا يحق لمن لم يتعمَّق في دراسة لغة القرآن أن يتصدى لتفسيره، قال الإمام الزركشي: " واعلم أنه ليس لغير العالم بحقائق اللغة وموضوعاتها تفسير شيء من كلام الله، ولا يكفى فى حقه تعلم اليسير منها، فقد يكون اللفظ مشتركا وهو يعلم أحد المعنيين والمراد المعنى الآخر"[16].

إن الاهتمام بالمفردة القرآنية ليس أمرا حديثا عند المفسرين المتأخرين، فقد كان للدراسة المعجمية للمفردة القرآنية عناية كبرى في تاريخ الثقافة اللغوية الإسلامية، بدءا من عهد النبي ﷺ الذي علم أصحابهمكانة الكلمة، وأصالتها ودقتها في إصابة المفهوم المقصود حينما قال لأصحابه ﷺ: **{لاَ يَقُلْ أَحَدُكُمْ خَبُثَتْ نَفْسِي وَلْيَقُلْ لَقِسَتْ نَفْسِي}**"[17].

وليس الشعراوي بدعا في الاحتفاء بالمفردة القرآنية، وإيلائها المكانة المستحقة في عمله التفسيري، بل سبقه إلى ذلك مفسرون كثر ممن ينتمون إلى هذا الاتجاه، غير أنه مما يجدر التنويه به هو أن الشعراوي أثناء تطرقه لشرح المفردات كان يبتعد عن طريقة أصحاب المعاجم اللغوية، ويعطي رؤية خاصة في تعامله مع المفردة القرآنية، حيث كان يرمي من وراء ذلك الاهتمام" بدراسة البنية الشكلية للوحدات المعجمية من حيث صيغتها، أو أصلها الاشتقاقي، أو عناصرها المكونة لها من ناحية، ويهتم من ناحية أخرى بالجانب الدلالي، فيدرس هذه الوحدات من حيث دلالتها المعجمية العامة، ودلالتها الخاصة التي تكتسبها بالتطور أو بالاستخدام في المجالات والحقول المختلفة، ويهتم على الخصوص بدراسة اللفظ في علاقته بغيره من الألفاظ كعلاقة الترادف أو التضاد أو الاشتراك، وغير ذلك من الموضوعات الشبيهة بما ذكر"[18].

لقد تعامل الشيخ الشعراوي مع اللفظ القرآني وكأنه كائن حي يتأمل قسماته، ويجس نبضه، ويستمع إلى خلجاته، لذلك تجده في كثير من الألفاظ، يأتي منها بما لا نعلم، لمناسبة يلحظها في السياق، أو في التراكيب، واللغة العربية، لغة معطاءة تجيء بكثير من المعاني متى وقف الدارس أمامها وقفة المتفرس، وكان ذا شفافية يصل بها إلى المستكن الدفين.

لقد كانت عناية الشيخ الشعراوي بالمفردة القرآنية عناية خاصة سار فيها على نهج سابقيه من علماء التفسير، ولقد تعددت مظاهر هذه العناية وهو ما سأحاول أن أورد نماذج وأمثلة عنه فيما يلي:

أ/ – توظيف المعاني الدلالية

يتجه الشعراوي أحيانا إلى الربط بين المفردة القرآنية ومعناها الدلالي، ثم بعد ذلك يسقط هذا المعنى في إطار السياق على المعنى المراد، بطريقة سلسة تشد الانتباه. مثال ذلك تفسيره قوله تعالى:﴿**فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ**[19]﴾ يقول :"وسوس" مأخوذة من الصوت المغري، لأن الوسوسة هي صوت رنين الذهب والحلي، إذن فما قاله الشيطان لأدم وزوجه هو كلام مغر ليلفتهما عن أوامر رب حكيم"[20] .

ويربط الشعراوي المفردة القرآنية من جانب آخر بمعناها الدلالي الأول، ذلك أن كثيرا من المفردات اكتسبت معان جديدة في ظل التطور الدلالي" هذا التطور الذي يحصل في المعجم هو ما يستدعي كثرة الشروح وتراكمها، وتعددها خلال دراسة المادة المعجمية الواحدة، كما أن من سمات هذا التطور الدلالي أنه يسير ببطء وتدرج، فتغيير مدلول الكلمة مثلا لا يتم بشكل

فجائي سريع، بل يستغرق وقتا طويلا ويحدث عادة في صور تدريجية فينتقل إلى معنى قريب منه، وهكذا إلى ثالث متصل به...وهكذا دواليك حتى تصل الكلمة أحيانا إلى معنى بعيد كل البعد عن معناها الأول"[21].

ب/ – المعنى الاشتقاقي للمفردة

يهتم الشيخ الشعراوي بإبراز المعنى الاشتقاقي للمفردة القرآنية، وعادة ما يربطه بالسياق حتى يدلل على دقة الأسلوب القرآني في توظيف تلك المفردة وانسجامها مع أخواتها في الآية الواحدة، فمثلا في قوله تعالى:﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**[22]﴾يقول:" وكلمة "القسط" تأتي منها اشتقاقات كثيرة، وهي من الألفاظ التي قد تدل على العدل وقد تدل على الجور، ....وهذا من محاسن اللغة، ويتطلب ذلك أن يمحص السامع الكلمة ويتعرف على معناها بما يتطلبه السياق .

"وقَسَطَ" معناها "عدل"، والفعل المضارع لها هو يقسط، والمصدر "قِسطا"، ومرة يكون المصدر "قُسوطا". والمصدر هو الذي قد يحول المعنى من العدل إلى الجور. فالقِسط بمعنى العدل . وقَسَطَ يَقْسِطُ قُسُوطاً ، أي جار وظلم. هنا نجد الفعل يأتي بالمعنى وضده، حتى يمتلك السامع اليقظة والفطنة التي تجعله يعرف التمييز بين معنى العدل ومعنى الجور. وحينقول"أقسط" فإنها بمعنى عدل، وهنا ننتبه إلى ما يلي: أن هناك فرقاً بين عَدْلٍ يأتي من أول الأمر وذلك هو القِسط، وهناك حكم ظالم يحتاج إلى حكمٍ آخر يزيل الظلم. وذلك الذي نستعمل له" أقسط" أي أزال الظلم، فكأن جوراً كان موجوداً وأزاله الحكم. فالقِسط –إذن– هو العدل الابتدائي، ولذلك نسمع قول الحق سبحانه وتعالى:﴿**وَأَمَّا القاسطون فَكَانُواْ لِجَهَنَّمَ حَطَباً**[23]﴾. والقاسطون هنا هم الظالمون، فالقسط هنا من قسط يقسط قُسوطا.وفي الآية التي نحن بصدد خواطرنا عنها يقول الحق:﴿**شُهَدَآءَ بالقسط**﴾ أي شهداء بالعدل. واللباقة في السامع هي التي توجه اللفظ إلى معناه المراد من خلال السياق ، فالسامع للقرآن يُفْترض فيه الأريحية اللغوية بحيث يستطيع أن يفرق بين الشيء والمشابه له من شيء آخر.

إذن فهناك قسط وأقسط، قسط بمعنى عدل، وأقسط بمعنى أقام القسط بإزالة الجور. والقسوط معناه الجور. والحق يقول:﴿**إِنَّ الله يُحِبُّ المقسطين**﴾ و "المقسطين" هي جمع" مُقسط "، من: أقسط أي أزال الظلم والجور إذن فالذي يرجح المعنى هنا سياق الكلمة ومصدرها. وقد يراد بالكلمة المعنى المصدري. والمعنى المصدري لا يختلف باختلاف منطوقه، فيقال:"رجلعدل"ويقال: "امرأة عدل". ويقال: "رجلان عدل"، ويقال: "امرأتان عدل"، و"رجال عدل" ، و"نساء عدل"[24].

ج/ – المشترك اللفظي:

يعرف اللفظ المشترك ثم يمثل له فيقول: "...المشترك: "اللفظ يكون واحدا ومعانيه تختلف حسب السياق" فمثلا كلمة قضى لها معاني متعددة ولها معنى يجمع كل معانيها. مرة يأتي بها الحق بمعنى فرغ أو انتهى. ففي قوله تعالى:﴿**فَإِذَا قَضَيْتُمْ مَّنَاسِكَكُمْ فاذكروا الله كَذِكْرِكُمْ آبَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْراً**﴾[25]. ومعناها إذا انتهيتم من مناسك الحج. ومرة يقول سبحانه:﴿**فاقض مَآ**

أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هذه الحياة الدنيآ﴾[26]. والمعنى إفعل ما تريد. وفي آية أخرى يقول الله تعالى: ﴿**وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلاَ مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى الله وَرَسُولُهُ أَمْراً أَن يَكُونَ لَهُمُ الخيرة مِنْ أَمْرِهِمْ**[27]﴾. والمعنى هنا أنه إذا قال الله شيئا لا يترك للمؤمنين حق الاختيار. ومرة يصور الله جل جلاله الكفار في الآخرة وهم في النار يريدون أن يستريحوا من العذاب بالموت. واقرأ قوله سبحانه: ﴿**وَنَادَوْاْ يامالك لِيَقْضِ عَلَيْنَا رَبُّكَ قَالَ إِنَّكُمْ مَّاكِثُونَ**[28]﴾. لِيَقْضِ علينا هنا معناها يميتنا، ومعنى آخر في قوله تعالى:﴿**وَقَالَ الشيطان لَمَّا قُضِيَ الأمر**﴾[29] أي لما انتهى الأمر ووقع الجزاء . وفي موقع آخر قوله سبحانه: ﴿**فَلَمَّا قضى مُوسَى الأجل وَسَارَ بِأَهْلِهِ**[30]﴾. قضى الأجل هنا بمعنى أتم الأجل وفي قوله تعالى: ﴿**وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بالقسط وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ**[31]﴾. أي حكم وفصل بينهم، وقوله جل جلاله: ﴿**وَقَضَيْنَآ إلى بَنِي إِسْرَائِيلَ فِي الكتاب لَتُفْسِدُنَّ فِي الأرض مَرَّتَيْنِ**[32]﴾. بمعنى أعلمنا بني إسرائيل في كتابهم . إذن « قضى » لها معان متعددة يحددها السياق. ولكن هناك معنى تلتقي فيه كل المعاني . . وهو قضى أي حكم وهذا هو المعنى الأم . إذن معنى قوله تعالى: ﴿**وإِذَا قضى أَمْراً**[33]﴾. أي إذا حكم بحكم فإنه يكون على أننا يجب أن نلاحظ قول الحق: ﴿**وَإِذَا قضى أَمْراً فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ**[34]﴾. معنى يقول له أن الأمر موجود عنده . موجود في علمه، ولكنه لم يصل إلى علمنا. أي أنه ليس أمرا جديدا ، لأنه مادام الله سبحانه وتعالى قال: "يقول له" . كأنه جل جلاله يخاطب موجودا، ولكن هذا الموجود ليس في علمنا ولا نعلم عنه شيئا. وإنما هو موجود في علم الله سبحانه وتعالى، ولذلك قيل أن لله أموراً يبديها ولا يبتديها. إنها موجودة عنده لأن الأقلام رُفِعَتْ ، والصحف جفت . ولكنه يبديها لنا نحن الذين لا نعلمها نعلمها"[35]

2– توظيف النحو والإعراب في تفسيره

يعتمد الشيخ الشعراوي في تفسيره للآيات القرآنية وشرحه لمفرداتها على ثقافته النحوية العالية، إذ يعد ذلك أحد الأسس التي بنى عليها تفسيره، فالإعراب أحد دعائم الشعراوي في تفسيره، فإنك لا تكاد تمر بآية من آيات القرآن إلا وتلحظ مدى عناية الشيخ بذكر أوجه الإعراب والنحو فيها.

ولقد كان اهتمام العلماء القدامى بالإعراب واضحا وجليا، فقد عدوه ضمن الأدوات التي يتسلح بها من ينبري لتفسير الكتاب العزيز، حتى " إن بعض العلماء كان يجعل من إعراب القرآن علما ويعده من فروع التفسير لا النحو..."[36].

ويقول عبد القاهر الجرجاني: "إن الألفاظ مغلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها ، وإن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وإنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام رجحانه حتى يرجع إليه، لا ينكر في ذلك إلا من ينكر حسه، وإلا من غالط الحقائق نفسها"[37].

بيد أن اعتماد النحو والإعراب لابد أن يكون بمقدار، وأن لا يطغى جانب النحو على جانب البيان والتفسير، والكشف عن مراد الله، لدرجة أن يصبح النص القرآني مجرد تمارين ونماذج تطبيقية للقواعد النحوية، فيفقد التفسير بذلك معناه ومقصده.

–توظيف الإعراب لبيان دقة الأسلوب القرآني في تلاؤم الألفاظ

ومثال ذلك تفسيره قول الحق سبحانه ﴿**سَلاَمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّار**[38]﴾. يقول : "وسبحانه حين يُورِد كلمة في القرآن بموقعها البياني الإعرابي، فهي تُؤدِّي المعنى الذي أراده سبحانه . والمثَل هو كلمة "سلام"، فضيف إبراهيم من الملائكة: ﴿**قَالُواْ سَلاَماً قَالَ سَلاَمٌ**[39]﴾. وكان القياس يقتضي أن يقول هو "سلاماً" ، ولكنها قضية إيمانية، لذلك قال: ﴿**سَلاَمٌ**﴾ فالسلام هنا يأت منصوبا، بل جاء مرفوعا، لأن السلام للملائكة أمر ثابت لهم، وبذلك حياهم إبراهيم بتحية هي أحسن من التحية التي حَيّوه بها. فنحن نُسلّم سلاماً، وهو يعني أن نتمنى حدوث الفعل، ولكن إبراهيم عليه السلام فَطنَ إلى أن السلام أمر ثابت لهم .وهكذا الحال هنا حين تدخل الملائكة على العباد المكرمين بدخول الجنة، فَهم يقولون: ﴿**سَلاَمٌ**﴾ وهي مرفوعة إعرابياً، لأن السلام أمر ثابت مُستقِر في الجنة، وهم قالوا ذلك، لأنهم يعلمون أن السلام أمر ثابت هناك؛ لا يتغير بتغيّر الأغيار، كما في أمر الدنيا"[40].

3– مباحث نحوية في تفسير الشعراوي

أ/ اسم الإشارة :

ومثال ذلك في تفسيره قوله تعالى: ﴿**تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ وَآتَيْنَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَأَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ...**[41]﴾.يقول : "...إن الحق سبحانه وتعالى يشير إلى الرسل بقوله: " تِلْكَ الرسل" و "الرسل" هي جمع لمفرد هو "رسول" . والرسول هو المكلف بالرسالة . والرسالة هي الجملة من الكلام التي تحمل معنى إلى هدف . ومادام الرسل جماعة فلماذا لم يقل الحق "هؤلاء الرسل" وقال " تِلْكَ الرسل" ؟.ذلك ليدلك القرآن الكريم على أن الرسل مهما اختلفوا فهم مرسلون من قبل إله واحد وبمنهج واحد. وكما عرفنا من قبل أن الإشارة ب "تلك" هي إشارة لأمر بعيد. فعندما نشير إلى شيء قريب فإننا نقول: "ذا" ، وعندما نستخدم صيغة الإشارة مع الخطاب نقول: "ذاك". وعندما نشير إلى مؤنث فنقول: "ت" وعندما نشير إلى خطاب مؤنث: "تيك" . و "اللام" كما عرفنا هنا للبعد أو للمنزلة العالية .

إذن فقوله الحق : "تِلْكَ الرسل" هو إشارة إلى الرسل الذين يعلمهم سيدنا محمد ﷺ، أو الرسل الذين تقدموا في السياق القرآني. والسياق القرآني الذي تقدم تحدث عن موسى عليه السلام، وعن عيسى عليه السلام، وتكلم السياق عن أولي العزم من الرسل"[42].

ب/ صيغة المبالغة

وهنا يقول الحق سبحانه: ﴿**وَجَآءُو عَلَىٰ قَمِيصِهِ بِدَمٍ كَذِبٍ**﴾"[43]، وكأن القميص كان معهم، ووضعوا عليه دماً مكذوباً،لأن الدم لا يكذب، إنما كذب من جاء بدم الشاة ووضعه على القميص. وشاء الحق سبحانه هنا أن يُعطي الوصف المصدري للمبالغة، وكأن الدم نفسه هو الذي كذب؛ مثلما تقول" فلان عادل" ويمكنك أن تصف إنسانا بقولك "فلان عَدْل" أي: كأن العدل تجسَّد فيه، أو قد تقول " فلان ذو شر" ، فيرد عليك آخر "بل هو الشر بعينه"، وهذه مبالغة في الحديث"[44].

ج/ النكرة والمعرفة

في قوله تعالى:﴿**رَبِّ اجعَلْ هَذا بَلدًا آمِناً**[45]﴾. وتكررت في آية أخرى﴿**اجعل هذا البلد ءامنا**[46]﴾. فمرة جاءت نكرة ومرة جاء بها معرفة إن إبراهيم حين قال ﴿**رب اجعل هذا بلدا آمنا**﴾طلب من الله شيئين : أن يجعل هذا المكان بلدا، وأن يجعله آمنا "[47] .

ثم يتساءل الشعراوي: " مامعنى أن يجعله بلدا ؟ ...كلمة بلد حين تسمعها تنصرف إلى المدينة والبلد هو البقعة تنشأ في الجلد فتميزه عن باقي الجلد كأن تكون هناك بقعة بيضاء في الوجه أو الذراعين فتكون البقعة التي ظهرت مميزة ببياض اللون والمكان إذا لم يكن فيه مباني جعلت فيه علامة تميزه عن باقي الأرض المحيطة به"[48].

مباحث صرفية في تفسير الشعراوي

وفي هذا الباب يعرض الشعراوي لبعض القضايا الصرفية مثل حديثه عن أوزان المفردات القرآنية ومثال ذلك وزن" تَفْعُله" في تفسير قوله تعالى: ﴿**وأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ وَأَحْسِنُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُحْسِنِين**[49]﴾يقول:"وهذه الآية جاءت بعد آيات القتال، ومعناها: أعدوا أنفسكم للقتال في سبيل الله . وقوله الحق: ﴿**وَلاَ تُلْقُواْ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التهلكة**﴾ تقتضي منا أن نعرف أن كلمة " تهلكة " على وزن تَفْعُله ولا نظير لها في اللغة العربية إلا هذا اللفظ، لا يوجد على وزن تَفْعُله في اللغة العربية سوى كلمة" تَهْلُكة "، والتهلكة هي الهلاك، والهلاك هو خروج الشيء عن حال إصلاحه بحيث لا يُدرى أين يذهب، ومثال ذلك هلاك الإنسان يكون بخروج روحه . والحق يقول :﴿**لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ ويحيى مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ**[50]﴾فالهلاك ضد الحياة"[51].

الخاتمة

إن المنهج اللغوي كغيره من المناهج الأخرى كان له حضور قوي في مادة التفسير القرآني، غير أن هذا الحضور كان متعدد الاتجاهات سواء من الجانب اللغوي البحت، أو من الجانب البياني والبلاغي، أو من الجانب الفني الأدبي. وقد اعتمد هذا المنهج باتجاهاته المختلفة عديد من المفسرين من بينهم الشيخ الشعراوي –رحمه الله– الذي يغلب على تفسيره هذا المنهج، ولقد كان تفسيره –رحمه الله– المثال العملي والتطبيقي لأسس وخصائص هذا المنهج، وذلك بالنظر إلى مدونته الموسوعية التي تنم عن غزارة علمه وسعة اطلاعه، كما كان تفسيره بأسلوبه السهل البسيط أداة معرفية ووسيلة تعليمية لعلوم اللغة العربية لمختلف شرائح المجتمع، فقد أقبل على تفسيره العالم والمتعلم، والصغير والكبير، والرجل والمرأة، وكتب الله له القبول

الهوامش والإحالات :

1. البيهقي في شعب الإيمان، ج1ص292. وينظر: البرهان للزركشي، ج2 ص160.
2. البرهان للزركشي، ج1ص293.
3. الإتقان للسيوطي، ج 2 ص 185.
4. المفردات للراغب الأصفهاني، طبعة دار االقلم، دمشق، ط2، 1418هـ/ 1998م، ج1 ص53.
5. التحرير والتنوير،لابن عاشور، ج1 ص 18.
6. دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره، طبع وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، المغرب،1417هـ/1996م، ص121
7. المفصل للزمخشري، ص12.
8. البرهان للزركشي، ج 1 ص 292 .
9. التفسير القيم لابن القيم، ص268 .
10. مقدمة تفسير القرطبي، ج1 ص34 .
11. أساسيات المنهج والخطاب في درس القرآن وتفسيره، محمد مصطفوي، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط1، 2009، ص 86.
12. مناهج التفسير واتجاهاته، دراسة مقارنة في مناهج تفسير القرآن الكريم، محمد علي الرضائي الأصفهاني، مركز الحضارة لتنمية الفكر الإسلامي، بيروت، ط1، 2008، ص387.
13. هو السيد الشريف محمد بن السيد متولي الشعراوي، ولد في الأحد 17 ربيع الثاني 1329هـ الموافق لـ 15 أبريل 1911م بقرية دقادوس مركز ميت غمر، محافظة الدهقلية، له تفسير يقع في عشرين مجلدا سماه "خواطر حول القرآن" توفي –رحمه الله– عن عمر ناهز سبعا وثمانين في 17 يونيو 1998م. ينظر: الشعراوي الذي لا نعرفه، سعد أبو العينين، ص 15.
14. الإمام الشعراوي مفسرا وداعية، أحمد عمر هاشم ،ص51.
15. البلاغة القرآنية في تفسير الزمخشري وأثرها في الدراسات البلاغية، محمد حسنين أبو موسى، دار الفكر العربي، القاهرة، دت، ص261 .
16. البرهان في علوم القرآن،للزركشي،ج1 ص295 .
17. أخرجه مسلم في صحيحه، باب كراهة قول الإنسان خبثت نفسي، رقم:6017.

18. قضايا المعجم العربي في كتابات ابن الطيب الشرقي، للدكتور عبد العلي الودغيري، ص4 ،نقلا عن دراسة الطبري للمعنى من خلال تفسيره، محمد المالكي، المملكة المغربية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، ص 1417،227هـ/1996م.

19. سورة الأعراف، الآية 20.

20. تفسير الشعراوي، ج 7 ص 4084.

21. علم اللغة، علي عبد الواحد، ص304.

22. سورة المائدة، الآية 08.

23. سورةالجن، الآية 15.

24. تفسير الشعراوي، ج 5 ص 2978 و 2979 .

25. سورةالبقرة، الآية200 .

26. سورةطه، الآية 72 .

27. سورةالأحزاب، الآية36 .

28. سورةالزخرف، الآية 77

29. سورةإبراهيم، الآية22 .

30. سورةالقصص، الآية29 .

31. سورةيونس، الآية54 .

32. سورةالإسراء، الآية 4.

33. سورة البقرة، الآية 117.

34. سورة البقرة، الآية 117.

35. تفسير الشعراوي، ج2 ص870 .

36. كشف الظنون، ج 1 ص 121.

37. دلائل الإعجاز، للجرجاني، ص 28 .

38. سورة الرعد، الآية 24.

39. سورةهود ، الآية 69.

40. تفسير الشعراوي، ج 12 ص 7300.

41. سورة البقرة، الآية 253.

42. تفسير الشعراوي، ج 2 ص 1083.

43. سورة يوسف، الآية 18.

44. تفسير الشعراوي، ج 11 ص 6887.

45. سورة البقرة، الآية 126.

46. سورة إبراهيم، الآية 35.

47. تفسير الشعراوي، ج1 ص600 .

48. تفسير الشعراوي، ج1 ص600 .

49. سورة البقرة، الآية 195.

50. سورة الأنفال، الآية 42.

51. تفسير الشعراوي، ج 2 ص 844.